



معلومات البحث

تاريخ الاستلام: 2021/10/25

تاريخ القبول: 2022/01/30

Printed ISSN: 2352-989X

Online ISSN: 2602-6856

من القطيعة إلى التدرج قراءة في منعطف الدرس الإستمولوجي

(محمد وقيدي - أنموذجا)

From the reading to the progress
(The turning point of the epistemology lesson,
the example of Mohammed El Wakidi)

إبراهيم عبد الرحيم¹ ، حسين بوداود²¹ مخبر الصحة النفسية جامعة عمار ثليجي الأغواط (الجزائر)،

a.brahim@lagh-univ.dz

² جامعة عمار ثليجي الأغواط (الجزائر)، boudhoc@yahoo.fr

ملخص: لقد شغل مبحث الإستمولوجيا ولا يزال حيزا كبيرا في الخطاب العربي المعاصر من أجل مسايرة التطور العلمي ونشر المعرفة بعقلانية مفتوحة على التاريخ، من هذا المنطلق نحاول في ورقتنا البحثية التركيز على الطرح الإستمولوجي المغاري والذي شكل حضورا بارزا من خلال مشاريع فكرية متنوعة، غير أننا نركز في هذا الطرح على مشروع محمد وقيدي الذي استطاع أن يحفر اسمه ضمن لائحة كبار مفكري العرب الذين تخصصوا في مباحث الإستمولوجيا، وأضحى من المتميزين فيها، من خلال تطبيق أهم مبادئها وانفتاحها على فضاءات معرفية أخرى، سنحاول إذن طرق جانب مهم يعد خلاصة مرجعية لفكره متمثلا في فكرة التحول من القطيعة والتجاوز إلى مرحلة التدرج، وذلك انطلاقا من متن كل من "غاستون باشلار" و "جان بياجي"، معتمدين في ذلك على منهج التحليلي النقدي.

الكلمات المفتاحية: الإستمولوجيا التكوينية، القطيعة، التدرج، غاستون باشلار، وقيدي.

Abstract: The theme of epistemology has occupied a large place in contemporary Arab discourse, in order to keep pace with scientific development and to disseminate knowledge, in a rational and open manner on history, so the theme of epistemology of El- Waqidi. Who knew how to engrave his name among the list of the great Arab thinkers, who specialized in the fields of epistemology, and became one of the eminent ones, by the application of his most important principles to other knowledge spaces. At the stage of gradualism, from the text of both "Gaston Bachelard" and "Jean Piaget", by relying on the method of critical analysis.

Keywords: Epistemology, critical analysis, pheasant, Gaston Bashlar, wakidi

1. مقدمة:

في ظل الاختلاف الإيديولوجي و حجم التجربة الكتابية التي هي في حالة إسهاب فكري ومعرفي في زمن العلم والتقنيات، إذ كل يوم تطالعنا فيه بالجديد وتتضح فيه الرؤية الفكرية التي طرأت على المجالات العلمية الدقيقة مثل الرياضيات والبيولوجيا والفيزياء بل وانتقل الحديث عنها أيضا إلى مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية، يأتي في هذا السياق حديث الجابري في كتابه مدخل إلى فلسفة العلوم: "تكتسي الدراسات الإستمولوجية التي تتناول قضايا المعرفة عامة والفكر العلمي خاصة أهمية بالغة في الوقت الحاضر، بل يمكن القول إنها الميدان الرئيسي الذي يستقطب الأبحاث الفلسفية في القرن العشرين (...)", ونحن هنا في الوطن العربي مازلنا متخلفين عن ركب الفكر العلمي، تقنية وتفكيراً، ومازالت الدراسات الفلسفية عندنا منشغلة بالآراء الميتافيزيقية أكثر من اهتمامها بقضايا العلم والمعرفة والتكنولوجيا، الشيء الذي انعكست آثاره على جامعاتنا ومناخنا الثقافي العام، هذا في وقت نحن فيه أحوج ما نكون إلى "تحديث العقل العربي" و "تجديد الذهنية العربية" وغني عن البيان القول بأن وسيلتنا إلى ذلك يجب أن تكون مزدوجة متكاملة: الدفع بمدارسنا وجامعاتنا إلى مساهمة تطور الفكر العلمي وملاحقة خطاه والمساهمة في اغناؤه وإثرائه من جهة، والعمل على نشر المعرفة العلمية على أوسع نطاق من جهة ثانية" (الجابري، 2014، الصفحات 11-12)

قلنا في هذا الوقت تحديدا لم يستطع الخطاب العربي حل إشكالاته الفكرية المعرفية وفق هذا النمط المعرفي لتكوين عقلانية مفتوحة على التاريخ، لذا عملت نخبة من مفكري العرب في البحث عن أسئلة جديدة تشكل كل منها نموذجا معرفيا مختلفا عن الآخر انطلاقا من تصورات تأمل في تجسيد ما يمكن أن يطلبه الخطاب الإستمولوجي من داخل العلوم، ليتكون على إثرها خطابا عربيا يتأسس على الحرية والعقل، من هذا المنطلق سنحاول التركيز في هذا الطرح على الحضور اللافت و الموضوعي للخطاب الفلسفي/ الإستمولوجي المغربي الذي سجل حضوره القوي من خلال مشاريع "محمد عابد الجابري"، و "عبد الله العروي"، و "سالم يفوت"، و "بن عبد العالي" و "محمد وقيدى" - موضوع بحثنا - وغيرهم... في محاولة تفكيك هذا المحمول الفلسفي و بناء مفاتيحه الأساسية و إبداء وجهات نظر بشأنه بعيدا عن "اليقينيات" التي تحدّ من الحراك الفلسفي القائم أساسا على المشكلات والأسئلة المفتوحة.

لقد شكل كل واحد من هؤلاء - كما قلنا - نموذجا معرفيا مختلفا عن الآخر، غير أن المفكر المغربي "محمد وقيدى" - مع وجود استثناءات أخرى طبعاً - استطاع أن يحفر اسمه ضمن لائحة كبار مفكري العرب في القرن العشرين بعدما تخصص في فلسفة العلوم أو الإستمولوجي حتى أضحي من المختصين المتميزين فيها، و تطبيق مبادئها إضافة للعمل على انفتاحها على فضاءات معرفية أخرى ترفض سلطة الجاهز على سلطة المنطق، وتؤسس لخطاب ينخرط في المسار العلمي دون أدجلة أو تعصب.

ومن خلال ذلك يمكننا طرح التساؤل التالي: من القطيعة إلى التدرج هل هو خطاب إستمولوجي جديد سلكه وقيدى كمحاولة استئناف للحظة جديدة فرضت نفسها في مناخ التحولات التاريخية للمعرفة العلمية؟ أم أنه محاولة تثوير فكرة كانت لا تزال غامضة في حقلنا الإستمولوجي وتجديد رؤيتها؟ لماذا القطيعة والتجاوز ولماذا التدرج؟

ما مبررات هذا الانعطاف؟ هذا ما سنحاول أن نبحث فيه في ورقتنا هذه التي نستلهم من خلالها أهم المحطات التي عرفتتها تحولاته الإستمولوجية داخل العلوم كنوع من الانخراط في تاريخ المعرفة العلمية ، وكذا رصد مدار هذا الانعطاف المعرفي .

2. محمد وقيدي والدرس الإستمولوجي:

يعتبر محمد وقيدي (1946- 2020) من أهم الباحثين العرب المغاربة الذين فتحوا حوارا جديدا داخل التفكير الفلسفي، على غيره من الزملاء (سالم يفوت، بن عبد العالي....)، حيث تناولوا الدرس الإستمولوجي انطلاقا من بيئة جديدة وهي البيئة العربية، هذه الإستمولوجيا تحاول الحفر في الأزمات العلمية، وتاريخ العلوم والتطورات التي شهدتها تاريخ المعرفة العلمية، كخطاب فلسفي جديد يفتح نافذته على الإستمولوجيا مستلهما الحفر المنهجي لتشريح الواقع العربي بمفاهيم إستمولوجية شتى تعود أصولها إلى باشلار وفوكو، لقد استطاع ولوج التفكير الفلسفي من باب الإستمولوجيا وفلسفة العلوم معلنا بذلك عن الإسهام في إبداع فكر فلسفي عربي جديد، يستدعي مناقشة مجموعة من المفاهيم و الإشكاليات الفكرية العربية والغربية نقاشا علميا يفتح على المفاهيم والتصورات المرتبطة دوما بتجديد مناهج البحث للقضايا الفلسفية بالمستوى المعرفي والإستمولوجي الجديد في ضوء تطور العلوم الصحيحة(فيزياء-كيمياء- رياضيات-بيولوجيا)، ونستطيع أن نوثق ذلك العطاء والثراء من خلال حصيلة عناوين ومؤلفات مهمة جدا منها فلسفة المعرفة عند غاستون باشلار(1980)، ما هي الإستمولوجيا(1983)، العلوم الإنسانية والإيديولوجية (1988)، حوار فلسفي : قراءة في الفلسفة العربية المعاصرة(1985)، التاريخ الوطني(1990)، أبعاد المغرب وآفاقه(1998)، التعليم بين الثوابت والمتغيرات (1999)، التوازن المختل : تأملات في نظام العالم(2000)، مكونات المغرب وسياسات(2001)، لماذا أخفقت النهضة العربية؟(2002)، بناء النظرية الفلسفية : دراسات في الفلسفة العربية المعاصرة(1990)، البعد الديمقراطي(1997)، جرأة الموقف الفلسفي(1999)، الإستمولوجيا التكوينية عند جان بياجيه(2007)، الإستمولوجيا التكوينية في فلسفة العلوم(2010).

وإذا ما جاز لنا التعريف بمحقل الإستمولوجيا فهي " تلك الأبحاث المعرفية (فلسفة العلوم ،نظرية المعرفة ،مناهج العلوم منظورا إليها من زاوية علمية معاصرة أي من خلال المرحلة الراهنة لتطور الفكر العلمي والفلسفي " (حسن، 1993، صفحة 33)، ويعرفها بوير "بأنها نظرية المعرفة العلمية" (مراد، 2007، صفحة 12)، كما يعرفها لالاند "على أنها تعني فلسفة العلوم بمعنى أكثر دقة (...). إنها بصفة جوهرية الدراسة النقدية للمبادئ والفرضيات والنتائج العلمية" (لالاند، دون سنة، صفحة 356)، أما البحث الإستمولوجي وهو ما يهمننا هنا في دراستنا حول محمد وقيدي فهو محاولة نقدية لتقويض المفاهيم الفلسفية التي تتحصن بالمعارف العلمية لتشيبث بالبقاء، وهو من أجل ذلك وقوف عند تحولات العقل العلمي وفتح على العلم وما ينفخ فيه من روح جديدة " (بن عبد العالي، 1996، صفحة 05)، أما في نظر محمد وقيدي "فهي دراسة نقدية تبحث فضلا عن المناهج في الأسس والنتائج (...). والإستمولوجي لا يمكن أن يستغني في دراسته النقدية عن دراسة مناهج العلوم لأنه بحاجة قبل النقد إلى معرفة صيغة لمناهج العلوم التي يدرسها"

(وقيدى م.، 1983، صفحة 08)، وعليه يمكن أن نوجز تلك المحطات في القول بأن "الإستمولوجيا ترتبط بنظرية المعرفة وبتاريخ العلوم وبالميتودولوجيا لأنها تتناول مناهج العلوم، وتدرس طرق اكتساب المعرفة العلمية والتفكير العلمي فحصا علميا ونقديا يقوم على الاستقراء والاستنتاج معا" (جابر، 2012، صفحة 393)، لقد كان خيار الدرس الاستمولوجي لدى محمد وقيدى هو الانعكاس الحقيقي للعمل الذي اشتغل عليه وقد كان ميدان اهتمامه بعدما تأثر بقراءة كتاب كلود برنارد "مدخل إلى الطب التجريبي" وخاصة ما تعلق بخصوصية المنهج الذي اشتغل عليه والذي لا نستطيع تطبيقه على العلوم التجريبية الأخرى، فراح يبحث فيه وينظر من داخل تلك الاستمولوجيا إلى طبيعة العلوم الأخرى متسائلا في كتابه ما هي الاستمولوجيا؟ وهو من أهم أعماله كما ذكرنا الذي لقي تحابوا كبيرا في العالم العربي في نقل النقاش إلى أروقة الجامعة المغربية، فتقرر تدريسه في كثير من الجامعات العربية، ونستطيع أن نحدد ذلك التوجه الحقيقي من خلال الوقوف على أهم محطتين فكريتين بارزتين في خريطته الفكرية وهما : ابستمولوجية القطيعة والتجاوز قراءة في تحولات مشروع باشلار وكذا الإستمولوجية التكوينية لجون بياجى، حيث يقول في هذا الصدد "بدأت الكتابة الفلسفية بدراسة نشرتها عن الإستمولوجي الفرنسي غاستون باشلار، كما أنني في كتابات أخرى اعتمدت على الإستمولوجي السويسري جان بياجى، واستلهمت كلا منهما فضلا عن تقديم فكره في عدد من الأبحاث الأخرى" (وقيدى م.، 1999، صفحة 61)

3. القطيعة والتجاوز (وقيدى قارئاً لباشلار):

ما يميز الباحث وقيدى في بحثه الإستمولوجي أنه استطاع أن ينقل تلك النقاشات الحادة في قضية المنهج والميتافيزيقا التي كانت تطرح في فضاءات الفكر الغربي إلى ساحتنا العربية عامة وفي الدرس المغربي بصفة خاصة انطلاقا من أعمال باشلار كرافد جديد للدرس المغربي مما أتاح له البحث في مصادر المعرفة وحدودها، ولقد استعاد الوقيدى مفهوم (العائق والقطيعة) من باشلار على غيره من المفكرين المغاربة لقراءة التراث في البحث والتنقيب وكذا مجال العلوم الإنسانية، يقول وقيدى في ذلك: "ينبغي أن أشير إلى أن اختياري للإستمولوجيا قد عبر عن نفسه بشكل واضح منذ أن اخترت باشلار موضوعاً لبحث الدراسات العليا، فقد كان باشلار واحداً من الإستمولوجيين الذين يمكن دراستهم، ولهذا اخترته إذن، فهو اختيار داخل اختيار" (الحقيوي، 2020)، فكان عمله الأول إذن موسوما بـ: "فلسفة المعرفة عند غاستون باشلار" ثم تبعه كتاب "ما هي الإستمولوجيا"، يقول باشلار "إننا حين نفحص شتى تصاميم تسلسل الحياة النفسية ورقة نلاحظ الانقطاعات في النتائج النفساني، فإذا كان ثمة تواصل فهو غير موجود أبدا في التصميم الذهني، إننا نفترضها في تصميم الأهواء والغرائز والمصالح" (باشلار، 1992، صفحة 08)

يرى وقيدى أن لكل فيلسوف الحق في أن يدعو إلى موقف فلسفي جديد، ولكن ليس من حظ أي فيلسوف أن يجد دائما، مثلما كان الأمر بالنسبة لـ"باشلار" (وقيدى م.، 1980، صفحة 08)، إن الاستناد الموضوعي الذي اعتمده باشلار من خلال الثورة العلمية المعاصرة التي بدأت منذ النصف الثاني من القرن 19، واستمرت خلال القرن 20 كان دعوة لإبراز القيم الجديدة التي حملتها تلك الثورة العلمية، يرى وقيدى: "...هناك إذن في نظر باشلار حركية في تاريخ العلم يقابلها سكون في تاريخ الفلسفة" (وقيدى م.، 1980، صفحة 09)

ينطلق وقيدى في الحديث عن فلسفة باشلار متسائلا فيما قد تجاوزت بصفة كاملة الفلسفات التقليدية التي تنتقدها أو فيما إذا كان لتجاوزها حدود (وقيدى م.، 1980، صفحة 12)، ففلسفة باشلار كانت ملهمة لفلاسفة معاصرين رغم اختلاف توجهاتهم واختصاصاتهم، وبالتالي فقد كونت لديهم نوعا من القراءات والتأويلات المختلفة لفلسفته، حيث يقول "...أراد باشلار لفلسفته أن تكون استجابة لعلم عصرها، ولكنه أراد أيضا أن تكون مجاوزة لفلسفة عصرها...". (وقيدى م.، 1980، صفحة 27)، ويقول في فقرة أخرى: "حين نعود إلى الفترة التي نشأت فيها فلسفة العلوم الباشلارية، وأخذنا بعين الاعتبار الأزمة التي كانت تعرفها الفلسفات العقلانية نتيجة للثورة العلمية المعاصرة، فإننا سندرك مدى الأهمية التي يمكن أن تحتلها مثل هذه الدعوة التي يدعو إليها باشلار لتجاوز تلك الفلسفات العقلانية" (وقيدى م.، 1980، صفحة 96)، في هذا المنحى انتقد باشلار الفلسفات المعاصرة انطلاقا من معطيات الفكر العلمي المعاصر، فهو يرى أنها غير قادرة على مسايرة ما يحدث من تطور لوجود هوة تفصل الفلسفات عن علوم عصرها، وهو ما اعتمده باشلار من خلال البحث في هذه الهوة ومنح العلم الفلسفة التي يستحقها، وفي إجابة لسؤال طرحه: ما هي أهم التيارات الفلسفية التي عاصرها باشلار واستمر في محاورتها ضمن كل مؤلفاته؟، ويرى وقيدى أن هذه الفلسفات هي الفلسفات الفرنسية للنصف الأول من القرن 20، ولكن الواقع الفلسفي الفرنسي لهذا القرن لا يشمل في الغالب إلا فلسفات تحاول الدفاع عن مبادئ فلسفية وضعتها مذاهب كبرى وجدت قبل هذا التاريخ، ف"باشلار" أراد أن يتجاوز الفلسفة الوضعية كتيار فلسفي على الرغم أنها الأقرب إلى فلسفته من تيارات أخرى، لكونها فلسفة غير ميتافيزيقية.

يرى محمد وقيدى أن المشروع الباشلاري يظهر على مستويين:

المستوى الأول: المتعلق بالصورة التي يريد باشلار أن يكون عليها الخطاب الاستمولوجي.

المستوى الثاني: المتعلق بطبيعة الموقف الفلسفي الذي يراه باشلار مطابقا للمرحلة الراهنة من تطور العلوم وينعته باشلار بنعوت مختلفة، فيقول: "...لكي نمنح الخطاب الاستمولوجي ما يريده لذاته من فعالية وفائدة فإن باشلار يطلب من الفلاسفة القيام بتنازلات". (وقيدى م.، 1980، صفحة 80)، يحاول أن يستمد من أنساقه العناصر التي تكون ذات فائدة في تحليل مشكل أو فهم اكتشاف علمي دون المطالبة منهم قبول غاياتهم، ولذلك فهو يرفض الانغلاق، ومن الأمثلة التي يريد توضيحها محمد وقيدى في هذه النقطة، أنه يحيلنا إلى فيلسوف معاصر آخر "ألتو سير" يستعير من "باشلار" مفهوم القطيعة الاستمولوجية لاستخدامه كأداة معرفية تساعد على فهم وتحليل التطور الذي حدث في فكر ماركس، والذي كان من نتيجته نشأة المادية التاريخية". (وقيدى م.، 1980، صفحة 82).

من جهة أخرى ينطلق وقيدى في التعريف بأهم مميزات هذه العقلانية فهو يرى بأنها تتميز بما يلي :

1/ عقلانية مطبقة (عقلانية العلم المعاصر): تسعى إلى أن تزيد من تطبيقاتها وأن تكون فلسفة إعادة النظر في تحديد المعارف.

2/ فلسفة متفتحة لقبول النظريات الجديدة كلما دعت الضرورة لتفسير الوقائع بكيفية شاملة ومعقولة (وقيدى م.، 1980، صفحة 88)

3/ عقلانية جدلية: السعي المستمر إلى التطبيق والتفتح صفتان تلزم عنهما صفة الجدلية : " الإنطلاق المستمر من إشكالية ما، إخضاع المبادئ للمراجعة المستمرة، الموقف النقدي المستمر " هذه هي صفات العقلانية الجدلية" (وقيدى م.، 1980، صفحة 91)

4/ العقلانية الباشلارية: ليست عقلانية عامة بل هي مجموع من العقلانيات الخاصة التي يخص كل منها ميدانا من ميادين المعرفة العلمية، لأن العقلانية العامة في نظر باشلار لا تستطيع ان تعكس المستويات المتنوعة للعقلانية في مختلف الميادين من حيث تمظهرها، فهي ليست على مستوى واحد من درجة التقدم.

1.3 نظرة باشلار لتاريخ العلوم :

يقول محمد وقيدى : "إذا كانت المعرفة العلمية تعرف في تاريخها توقفا أو تعطلا يعبر عنه مفهوم العائق، وإذا كانت تلك المعرفة تعرف من جهة أخرى قفزات كيفية هي التي يعبر عنها باشلار بفضل مفهوم القطيعة الاستمولوجية فإنها تعرف أيضا أنواعا من العلاقات الجدلية الخاصة بها، وهي التي يعبر عنها باشلار بمفهوم الجدل" (وقيدى م.، 1980، صفحة 147) ذلك هو التصور الباشلاري لتاريخ العلوم من خلال هذه المفاهيم الثلاثة :

أ/ العائق الاستمولوجي: يرى محمد وقيدى أن " العوائق الاستمولوجية تبرز في الشروط النفسية للمعرفة تبعا لضرورة وظيفية، بمجرد ما تقوم علاقة بين الذات والموضوع". (وقيدى م.، 1980، صفحة 110)، ومن صور العوائق الإستمولوجية التي يحددها لنا محمد وقيدى في كتابه فلسفة المعرفة عند غاستون باشلار يذكر لنا :

الصورة الأولى يدعوها بالتجربة الأولى: حيث يرصد لنا وقيدى مثالا توضيحيا عن التجربة الأولى كعائق استمولوجي فيقول : "حين ننظر لأول وهلة إلى جسم متحرك في الماء توقف عن الحركة، يخطر ببالنا أن الجسم هو الذي يقاوم الماء وهذا خطأ تقابله حقيقة تأتي لعقلنة التجربة الأولى، وهدم المعرفة الناتجة عنها، وهي أن الماء هو الذي يقاوم الجسم فالمعرفة العلمية تأتي من هدم المعرفة التي تكون نتيجة لتجربة أولى، لا استمرارا لها. (وقيدى م.، 1980، صفحة 112)، إذن فالمعرفة العلمية الموضوعية تتجاوز التجربة الأولى غير المعقلنة، فلا بد إذا من انتقاد النظرة التي كونتها لها التجربة الأولى لتحريرها من الخطأ، وهي أبرز العوائق وأولها ذلك أن الوقوف عند التجربة الأولى المتمثلة في الاتصال الأول بالموضوع يخلق عائقا يحول دون المعرفة الموضوعية.

الصورة الثانية (التعميم): يتساءل وقيدى كيف يصح اعتبار التعميم عائقا استمولوجيا؟، يرى وقيد أن هناك حالتين للتعميم: التعميم عندما يكون استجابة لضرورة علمية في تفسير الظواهر للكشف عن قوانينها وهو لا يكون في هذه الحالة عائقا استمولوجيا. (وقيدى م.، 1980، صفحة 113)، أما التعميم الذي يكون عائقا استمولوجيا في نظر

وقيدي هو الذي يكون استجابة لمتمعة عقلية نتيجة التسرع، وبذلك فهو يعيق بلوغ الحقيقة. (وقيدي م.، 1980، صفحة 113).

يقول وقيدي: "التعميم يكون موضوعيا حينما لا يغفل الفوارق بين الظواهر أو تفصيلاتها أو تدقيقاتها، وهو في هذه الحالة دينامي في العمل العلمي، ولكنه يكون غير موضوعي حينما يريد أن يقوم كتعميم بناءً على مماثلات زائفة فيكون عندئذ عائقا ابستمولوجيا. (وقيدي م.، 1980، صفحة 117)، كما يرى وقيدي أن هناك صور أخرى يظهر فيها التعميم عائقا ابستمولوجيا متمثلا في التعميمات الزائفة في مرحلة ما قبل العلمية والتي أعاققت على فهم الظواهر بصورة موضوعية كفكرة التخمر والتجلط والتجمد، بحيث يتم التعميم فيها انطلاقا من منظر واحد دون مراعاة الفروق التي تميز الظاهرتين حيث يقول "وهكذا فإن العلماء الذين حاولوا في القرن 18 دراسة ظواهر التجلط والتجمد انطلاقا من ظاهرة الاختمار قد وقعوا في مثل هذه التعميمات الزائفة، وذلك لأن الظواهر الأولى تختلف عن الظاهرة الأخيرة التي تم الانطلاق منها". (وقيدي م.، 1980، صفحة 117)، وهناك عوائق ابستمولوجية أخرى تذهب بالفكر بعيدا عن الموضوعية وبطريقة تختلف عن العوائق السابقة منها "ما يدعوه باشلار بالعائق الجوهرية وطريقه في إبعاد الفكر عن الموضوعية هو أنه يدفع به إلى البحث في الظواهر عما هو خفي فيها باعتباره جوهرها" (وقيدي م.، 1980، صفحة 119).

الصورة الأخرى للعائق ابستمولوجي هي العائق الإحيائي، ويتمثل أساسا في امتداد معارف بيولوجية أو فيزيولوجية إلى غير ميدانها لكي يتم تفسير في ضوءها ظواهر أخرى، فحينما حاول باشلار "تقديم هذه الصور للعائق ابستمولوجي كان نتيجة لتطبيق إحدى مهام الإبستمولوجيا وهي التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية، حيث يقول "حين يقوم باشلار لهذا التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية... فإنه يتجاوز بكل ذلك التحليل التقليدي للعمل العلمي، إنه لا يريد أن يقوم لنا مجرد صورة عن العمل العلمي في الكيفية التي يبلغ فيها معرفة موضوعية ولكنه يريد إلى جانب ذلك أن يقدم لنا صورة عن العمل العلمي في حالات ركوده ونكوصه" (وقيدي م.، 1980، صفحة 123)

ب/ القطيعة ابستمولوجية: يرى محمد وقيدي "القطيعة ابستمولوجية تعني أولا قيام فكر علمي أكثر شمولا، وهي تعني ثانيا مراجعة للمفاهيم الأساسية للعلم السابق عليها، وتعني أخيرا قيام فكر علمي أكثر تفتحا" (وقيدي م.، 1980، صفحة 136) وهنا يقارن في ما إذا كانت العلوم الطبيعية والعلوم الفيزيائية قد حققت القطيعة مع المعرفة السابقة، فالعلوم الانسانية يهيمن عليها التداخل بين المعرفة العامة والمعرفة العلمية، إذ يتساءل عن الكيفية التي تتحقق بها القطيعة ابستمولوجية في علم الاجتماع، وهنا يسعى ليس فقط إلى النقد والوقوف عند مرحلة النقد ابستمولوجي، ولكنه يسعى إلى مرحلة التأسيس في مجال علم الاجتماع.

ج/الجدل: أراد باشلار أن يقدم مفهوما للجدل مستمدا "من الدروس التي يمكن أن نتلقاها حين نكون على يقظة فلسفة ازاء معطيات الفكر العلمي المعاصر" (وقيدي م.، 1980، صفحة 147)

2.3 انعكاسات المشروع الباشلاري في أبحاث محمد وقيدى:

من خلال قراءته لمشروع باشلار حاول وقيدى أن يطبق هذه الاستمولوجيا، وكان أول شكل لذلك التطبيق (الإستمولوجيا الجهوية تحديدا) في تدريسه للفكر اليوناني، بحيث طبق المفاهيم الأساسية لـ"باشلار" خصوصا مفهومي "القطيعة والعائق" في دراسته للعلوم الإنسانية، وتبين أن الإيديولوجيا في نظره هي العائق الأساسي أمام إمكانية تطور هذه العلوم الإنسانية، وفي تطبيقاتها المشهد الثقافي العربي مثلما هو الحال في الدراسات الاستشرافية، التي لم تستطع في مجملها أن ترقى إلى العلمية، لأنها لم تستطع أن تحقق هذه القطيعة "إن الانتقادات التي يوجهها مفكرون عرب إلى الاستشراف ينبغي أن تفهم من حيث إنها إشارة من طرفهم إلى أن كل أنواع التقدم التي حققتها الدراسات الاستشرافية لم ترفع عنها كل العوائق الإستمولوجية التي تصدر عن خلفياتها الإيديولوجية" (وقيدى م.، 2011، صفحة 209)، ويستطرد في ذلك قائلا: "بعد كتابي عن باشلار، بدأت أفكر مباشرة في موضوع يليق بدراسات أخرى، ففكرت في العلوم الإنسانية لأنني أردت أن أدرس العلوم الإنسانية في العالم العربي، وقيمت بالكثير من الأبحاث التي تضمنتها كتابي "العلوم الإنسانية والإيديولوجيا"، حيث أدركت أن العائق الأساسي للعلوم الإنسانية هو الإيديولوجيا" (الحقيوي، 2020، صفحة 11).

4. مرحلة التدرج (المنحى البياحي في فكر محمد وقيدى):

لقد كانت مباحث باشلار منصبة أساسا على مجال العلوم الفيزيائية والرياضية ولم يتطرق إلى مجال العلوم الإنسانية وهذا ما أراد أن يبحث فيه وقيدى، ومن هنا كان لزاما علينا أن نتساءل: هل بقي وقيدى وفيا للإرث الباشلاري أم غادره؟ .

على الرغم من أن الباحث محمد وقيدى انشغل اهتمامه في بداياته الأولى على الإرث الباشلاري من خلال مفاهيمه الأساسية حول القطاعات والتجاوز إلا أنه في لحظة ما تبين له أن الميدان القريب من اهتمامه ولديه معرفة بها هي العلوم الإنسانية، فتحول بحثه إلى واقع آخر يقترب من تخصصه وخاصة في ميدان العلوم الإنسانية، إذ أن البحث في ميدان استمولوجية العلوم الإنسانية تكمن أساسا من وجهة محمد وقيدى في كونها تعتمد على مبدأ الخصوصية للموضوع الذي تريد أن تتطرق إليه، ف" الوعي المتزايد للعلوم الإنسانية بخصوصية الموضوع الذي تدرسه، وهو الأمر الذي ارتبط باستمرار باكتشاف طرق خاصة لبحث هذا الموضوع في مستوياته المختلفة" (وقيدى م.، العلوم الإنسانية والإيديولوجيا، 2011، صفحة 107)، من خلال هذا أراد محمد وقيدى الإقرار بخصوصية العلوم الإنسانية وذلك من خلال منهجها، وكذا تأثره بالألتوسيرية من خلال قراءتها للمادية التاريخية الماركسية، حيث نجد هذا التأثير في كونه يستقي منها مفاهيمه ومواضيع مناقشاته وخاصة بحوثه في إستمولوجيا العلوم الإنسانية، ف"ألتوسير إذن يمكن أن يعتمد في التقدير شريطة الوعي بأنه لا يمثل إلا لحظة نقدية في طريق بناء نظري لا يزال إمكانا" (وقيدى م.، 1985، صفحة 173)

لقد وجد وقيدى كما قلنا في بحثه حول مجال العلوم الإنسانية جان بياجى، والذي كان أقرب إلى ما يريد البحث فيه، فعالج فكرة التدرج أو ما يعرف بالاستمولوجية التكوينية، إذ من خلال قراءتنا لكتاب محمد وقيدى الموسوم ب: الاستمولوجية التكوينية عند جان بياجى وفي إحدى صفحاته يرى وقيدى " الجدير بالذكر أن بياجى لا يثبت بداية مطلقة للمعرفة، ولا يرى في نفس الوقت أن هناك نهاية مطلقة تكون هي الغاية التي ينبغي الوصول إليها " (وقيدى م.، 2007، صفحة 95)، فالاستمولوجيا التكوينية تنطلق أساسا من أنه لا يمكن الكشف عن طبيعة واقع حي، بمجرد دراسة مراحله الأولية وحدها، ولا بدراسة مراحله الأخيرة وحدها ؛ بل بدراسة حركية تحولاته نفسها.

إن هدف البحث الاستمولوجي المتعلق بالمعرفة العلمية والذي توصل إليه بياجى كما ينظر إليه وقيدى من خلال مفهومي النمو والتكون يندرجان ضمن خاصية البعد النفسي خاصة في دراسة نمو المفاهيم وتكوّنها لدى الإنسان من الميلاد إلى ما يعرف بسن المراهقة، فموضوع الاستمولوجيا هي دراسة تطور علم ما من خلال العوامل الرئيسية التي تتمثل في العوامل المجتمعية والنفسية والمعرفية و الانتقال بها من حالة أدنى إلى حالة أعلى وهذا هو التدرج.

إن وجود العلوم الطبيعية في نظر وقيدى قد ساعد العلوم الإنسانية على تطوير نفسها و البحث عن مناهج تميزها وهذا ما كان يهدف إليه بياجى، وهو البحث عن الشروط الموضوعية التي تسمح للإستمولوجيا على غيرها من العلوم الإنسانية الأخرى في الاستقلال بذاتها بعيدا عن تبعيتها للتأمل الفلسفي، فكان لزاما عليه أن يحدد شروط هذا العلم الجديد من خلال تحديد موضوعه وهو تكوّن المعارف وكذا تحديد المنهج الخاص به، حيث رأى بياجى في المنهج التكويني أنه السبيل الوحيد لتحقيق الغاية التي تسعى إليها الاستمولوجيا من دراسة لموضوعها، حيث ينظر إلى المعرفة العلمية من زاوية سيرورتها وكذا اعتبار المعطيات النفسية دافعا في تشكل تلك السيرورة .

لقد دعا بياجى في نظر وقيدى إلى إقامة علاقة تعاون بين الإستمولوجيا وعلم نفس الطفل لكي تكون قاعدة أساسية يسعى الباحث الإستمولوجي في بلوغها كما دعا أيضا إلى مشاركة علوم أخرى في الاهتمام بتفسير ميكانيزمات المعرفة وتكوّنها كالعلوم الإنسانية التي تهتم هي الأخرى بإنتاج المعارف من حيث هي فعالية إنسانية، فالتعاون كما يراه محمد وقيدى هو " استجابة موضوعية لمجموع العوامل المتداخلة التي تتفاعل تأثيراتها في تكون المعرفة وسيرورتها (وقيدى م.، 2007، صفحة 163)، إن ارتباط الفلسفة ومن خلفها طبعا نسق الفيلسوف بأسئلة الواقع يؤدي إلى تأسيس الحوار من هذا المنطلق يرى وقيدى: " بهذا الصدد أن الفكر الفلسفي يتأسس ويتطور في الشروط المجتمعية التي يسودها حوار فكري عام.

فالفلسفة لا تنشأ ولا تتطور في انعزال عن الوضع الفكري العام في المجتمع، والمجتمعات متفاوتة في هذا المستوى من حيث درجة تطورها، ومن حيث نوعية المشاكل المطروحة عليها، ومن حيث الوعي بهذه المشاكل في كل عناصرها وجوانبها وامتداداتها، ومن حيث وضع هذه المشاكل موضع حوار فكري شامل لذلك، فالتساؤل عن الفلسفة في مجتمع ما يمس في الوقت ذاته الوضع الفكري العام في هذا المجتمع " (وقيدى م.، 1999، صفحة 13).

إن ما تسعى إليه الإستمولوجية التكوينية هو توضيح المعرفة وخاصة العلمية منها بالاستناد إلى تاريخها، و تكوينها الاجتماعي وعليه فإنها تستند على الصياغة المنطقية لبنيات الفكر المتوازنة وعلى حالات أخرى ينتقل فيها الفكر في مراحل تطوره من مستوى إلى آخر، حيث يستطرد جان بياجي من خلال الإستمولوجية التكوينية في حصول التوازن ما بين التقدم الذي يتم في التنظيم المنطقي والعقلاني للمعرفة وبين العمليات السيكلولوجية المعيارية المتناظرة .

لقد كان البحث في مراحل التطور المعرفي و النمو العقلي لدى الإنسان هو جوهر المنعطف الاستمولوجي في الانتقال من فكرة التجاوز إلى فكرة التدرج الذي اشتغل عليها وقيدى في ممارسة الدرس الاستمولوجي إلا أنه على الرغم من ذلك فهو لم يستبعد كثيرا حضور الدرس الباشلاري في متن الدرس الاستمولوجي عند بياجي، حيث كان هذا الأخير قريبا منه وخاصة في دراسة عملية المعرفة، وهذا ما انبثق فعلا من خلال تحليله لهياكل التفكير المنطقي البسيط عند الطفل أو تلك التي تختص بدراساته المتعلقة بأفكار الأطفال عن العدد والشكل، لقد اعتمدت الاستمولوجيا التكوينية على نفس الطفل لمعرفة كيف تنمو المفاهيم العقلية، والنظر إلى المعرفة من زاوية تطورها في الزمان، أي بوصفها عملية تدرج ونمو متصلة من بدايتها الأولى حتى نهايتها الأخيرة ، و النظر إلى المعرفة بوصفها نتيجة لمعرفة سابقة بالنسبة للمعرفة الأكثر تقدما.

5. وقيدى/ الكتابة وحضور الذات (نحو بناء هوية عربية):

من خلال بحثه المستفيض حول فكر باشلار أدرك وقيدى بأن الاستمولوجيا الباشلارية تظل محدودة لأنها اقتصرت على دراسة التطورات التي عرفتتها المعرفة العلمية بين نهاية القرن 19 وبداية القرن 20، لهذا انصرف إلى نوع آخر من المسألة الفلسفية للإرث القديم وكذا التساؤل حول المنجز الفكري والفلسفي العربي المعاصر من خلال منجزه (حوار فلسفي) و (بناء النظرية الفلسفية) وكذا (جرأة الموقف الفلسفي)، حيث بدأ وقيدى يشتغل بهذه الروح الإستمولوجية اليقظة التي تبحث عن امتداداتها في إمكانية بناء هوية فلسفية عربية معاصرة، وكذا الانشغال بقضايا الحرية والديمقراطية وهذا ما نجده من خلال منجزاته حول "أبعاد المغرب وآفاقه" وكذا "إعادة كتابة التاريخ الوطني"، إذ يرى محمد وقيدى في ذات السياق أن الحالة الراهنة للعلوم الإنسانية في العالم العربي تستوجب قيام نقد إستمولوجي علمي في مجال العلوم الإنسانية من أجل أن يمارس تحليلا نقديا على ذاته دون أن يكون هناك توقف ينعكس عن نموه التراكمي الضروري، فهدف النقد الإستمولوجي المنشود هو العودة إلى الإنتاج العلمي في العلوم الإنسانية من أجل إبراز المشكلات المعرفية المرتبطة بهذا الإنتاج من خلال إبراز القيم الإستمولوجية التي تؤدي إلى بروز إنتاج علمي كما ينبغي أيضا التوقف عند مظاهر التعطل والنكوص في الممارسة العلمية في مجال العلوم الإنسانية في العالم العربي من أجل معرفة عوائقها الاستمولوجية" (وقيدى م.، 1999، صفحة 14)، إن الفكر الفلسفي يتأسس ويتطور كما قلنا سابقا في مناخ مجتمعي يسوده الحوار فكري عام، لأن المجتمعات متفاوتة من حيث درجة تطورها، ومن حيث وعيها وكذا من حيث نوعية المشاكل المطروحة عليها.

لقد تنوعت إذن كتابات محمد وقيدى من الفلسفة إلى الإستمولوجيا مروراً بكتابات سياسية لا تؤمن بالتخصص. وقيدى كان يفضل التفكير مباشرة بضمير المتكلم "الأنا"، حيث تضي فيه الذات النسبية على مرجعيتها، فتصبح هذه المرجعية خاضعة للذات بدل أن تكون الذات خاضعة للمرجعية التي يدرسها، ففي اللحظة التاريخية التي عرفت حملة نابليون حدثت الصدمة.. ماذا نريد نحن الآن؟ هذا هو السؤال الراهن أو كما يسميه بالسؤال الحارق إذ يرى أنه لا نريد أن نسحب نموذج تراثي إلى الحاضر ولا نجلج نموذج غربي إلى الحاضر نريد أن نبني نموذجاً مخصوصاً بنا (الابداع) ونحن من يتحمل مسؤولية هذا النموذج، فلا يمكن أن يكون هيدغر أو ابن سينا هو الذي يفكر فينا نحن نريد أن نكون نحن من يفكر بالاستعانة بالنصوص أي أن نمشي إلى زمننا برفقة هؤلاء، وهذا ما ذهب إليه في كتابه جرأة الموقف الفلسفي حيث يقول: "التفكير بضمير الغائب يمثل التبعية الذات المفكرة لمرجعيتها وهذا عائق للإنتاج الفلسفي بمعناه الحق، فالذات التي تفكر بضمير الغائب يحتويها مرجعها فلا يترك لها منفذا للخروج منه وهي التي يبهرها النص فلا تبحث عن حقيقتها خارجه" (وقيدى م.، 1999، صفحة 79).

إن الكتابة عند محمد وقيدى لها خصوصيتها العلمية والمنهجية، فحينما تحولت كتاباته إلى مجال العلوم الإنسانية مستلهما بذلك أدوات النقد في تساؤله عن المكانة التي تحتلها العلوم الإنسانية في تصنيف العلوم وفي علاقتها بمجموعة من العلوم الأخرى، ومن خلال تناوله أيضاً موضوع العلوم الإنسانية والأيولوجيا وما دور هذه الأخيرة في تأسيس هذه العلوم الإنسانية، ومن خلال بحثه المستفيض بالاستعانة بأدوات النقد الإستمية توصل إلى معرفة أن النجاح لا يتحقق دائماً بتطبيق المفاهيم بل بالموقف النقدي لأسس تلك المفاهيم، وليس الوقوع تحت تأثيرها، كما أنه دعا إلى التمييز في العلوم الإنسانية بين العوائق والقطائع ولمن الأولوية في تاريخ المعرفة العلمية في مجال الظاهرة الإنسانية.

وغير بعيداً عن البحث في هويتنا حاول وقيدى أن يتجاوز مأزق التأسيس بإبراز بعض النماذج العربية التي كانت تبدو حاضرة في نظره، كالحبابي وعبد الكريم الخطيب، وكذا أنور عبد الملك التي تشكل في نظره الإرهاصات الأولى التي لا بد من إبراز مكانتها وكذا إسهاماتها الفكرية، ومحاولة البحث عن مكانتها الأساسية لكي نتحرر من خلفياتنا الإيديولوجية بتفكيك مفاهيمها التي استلبت وعينا وحتى هويتنا، وهذا مانلمسه تحديداً في حديثه عن الحبابي الذي خصص له ورقة خاصة، إذ يعتبر في نظره يمثل لحظة التأسيس لخطاب فلسفي مغربي أراد الانخراط في جدل فلسفي رغبة في المشاركة الفكرية من أجل تهيئة الدرس الفلسفي المغربي، وهذا من خلال الإجابة عن تحولات الوعي في المجتمع والثقافة المغربية دون الانفصال عن ما تقدمه المدارس الفلسفية المعاصرة الأخرى.

كان فكر الحبابي مفتوحاً على محاور التراث الفلسفي بأكمله من أجل استخلاص قيمه ولم يكن أبداً محصوراً على ما هو مخصوص من تراثنا، فالحبابي في نظر وقيدى ليس "من يدعون إلى معاصرة تعتمد الفكر الأوربي وحده مرجعاً، لأنه كان يجد لدى فلاسفة الإسلام أيضاً ما يمكن أن نأخذهم عنهم، وهكذا فإن المعاصرة لم تكن تطرح عنده كتنقيض للأصالة، لقد غابت هذه الإشكالية بهذه الصورة من فكر هذا الفيلسوف" (وقيدى م.، جرأة الموقف الفلسفي، 1999، صفحة 148).

إن فلسفة الحبابي عند محمد وقيدى تتميز بالطابع الشمولي فلا تفكر من أجل إنسان جهة ما بل موضوعها هو الواقع الإنساني في شموليته.

لقد أراد وقيدى تقديم الحبابي في كتاباته كلحظة اعتراف لهذا الفيلسوف الذي كان في نظره أستاذا وفيلسופا وبالتالي فهو يقف عند ميزات الحبابي الرجل والإنسان وكذا الفيلسوف الذي كانت له فضائل لا يمكن نكرانها على الدرس الفلسفي بالمغرب، فالحبابي حسب وقيدى كان ركنا أساسيا من أركان الدرس الفلسفي في المغرب وهو تأسيس تجاوز مجال الفلسفة إلى مجالات الثقافة والإبداع، حيث اشتغل على غير الكثيرين بالفلسفة، يدرسها ويكتب فيها وينظم الندوات حول موضوعاتها أو يشترك فيها، وبإبداع واهتمام وفتح مشروعه على كثير من المفاهيم كالكائن الشخص، الشخصانية، الشخصانية الواقعية، الغدية وغيرها من المفاهيم، بالإضافة إلى حضور تاريخ الفلسفة في كتاباته، كما دعا في ثورته الفكرية وجوب الانفتاح والعمل من أجل تأسيس قيم حضارية، حيث يرى الحبابي أن "الكائن البشري مدفوع عضويا إلى تملك الأشياء أو الكائنات التي يحاول عن طريق العمل أن يغيرها أو يصوغها، إنما تكمل وجوده" (الحبابي، 1973، صفحة 111)، أما في مسألة التغيير فيرى أنه يبدأ في الذهن ثم يبدأ بعد ذلك تحريك الفعل، أي أنه حينما نتحدث عن التاريخ فإننا نتحدث عن مستقبلنا، فنحن لم نصل إلى مفهوم الذات ومازال لم يتضح بعد.. هو مفهوم ضبابي بالنسبة لنا لأننا لا نملك رصيда تاريخيا نحن فقط نتكلم برؤية تفاؤلية نريد أن تكون هناك ذوات فاعلة .

من هنا يتحدد مجال التغيير، فالتغيير هو ضد الانتظار ومن تشاؤمنا نريد البحث عن المستقبل، نبحث عن المصارحة التي لا نجد لها مكانا في لغتنا، فالحالة المرضية داخل اللغة تورطنا فيها كالإطراء و المغالاة.

فلكي تحقق الفلسفة هدفها لا بد أن نزيحها من جدل الدعوات الإيديولوجية والانفتاح أكثر على المساءلة والحوار لشق دروب الفكر، هكذا يرى وقيدى وعليه فإن المساهمة يجب أن تكون في إبداع الأسئلة، وتوليد المفارقات في فضاءات تدفعنا للحوار الواسع لا مع بعضنا بعض فحسب، وإنما مع جوهر الأشياء كلها. علينا إذن أن نشعر بقيمة الحاجة إلى الفلسفة ومدى فاعليتها في بناء الحوار مع عدم الدخول في الحوار بمسلمات مسبقة معادية أو مناقضة لمعتقدات الآخرين الذين نتحاور معهم. هذا لأنه متى بدأنا الحوار بمسلمات مسبقة و يقينية سيفشل الحوار، فالحوار السليم والناجح في نظره يبنى على عدم التعصب لهوياتنا وأهدافنا المسبقة والمحددة سلفا.

الحوار هو عملية مستمرة في البحث عن حلول لمشاكل واقعية أو حتى افتراضية، فهو أساس نشوء المجتمع ووجوده والإنسان لا يخلو إنساناً من دون مجتمع لأن الإنسان كائن اجتماعي.

إذن فغياب الحوار عنده هو غياب المطارحات النقدية داخل التأليف، فالمشتغلون بالفلسفة نادرا ما ينخرطون في قضايا الشأن العام أي هل كل من يشتغل الفلسفة لا بد أن يكون مدرسا لها؟ هذا هو العائق المترسب في مخيلنا الثقافي والفكري، فقبل الحديث عن المدرسة أو الجامعة هناك تجربة الخطاب واللسان التي تحاول أن تملئها علينا المؤسسات بلغة البلاغة وعمليات البرهنة، وكذا الكتابة التي سنوجهها للآخر.

إذن يتعين على كل من يسلك في البحث عن الحقيقة أن يكون موضوعيا في تفكيره وأن يتخلى عن ميولاته الذاتية وأهوائه من هذا المنحى وجب على الفلسفة أن تفتتح وتذهب إلى الاختصاصات الأخرى، حيث يقول المفكر المغربي بن سالم حميش "إن حاضر الفكر الفلسفي عندنا ملتبس، مضطرب، معاق وبالتالي فهو بأمس الحاجة إلى أن نفكر في واقعه وآفاقه عبر المراجعات التقييمية الهادفة والوقفات النقدية الجذرية" (حميش، 1983، صفحة 7) محمد سيلا يرى أن "الشرط الأول لإمكان قيام إبداع فلسفي عربي هو أن ننقل إلى لغتنا الأفكار والقضايا والمفاهيم الفلسفية من الفلسفات المتقدمة علينا. فنحن لا نستطيع أن نبذل إن لم نحقق أولا الاستيعاب الجيد عن طريق النقل" (سيلا، 1998، صفحة 178)، يجب أن نصوغ فلسفة لحاضرنا نستحضر حوارات سقراط للغوص في الجدل العمومي، لكي يحاور الناس ويحررهم من أسر اليومي، يقول الخطيبي: "إن ضرورة سقراط هي ضرورة الحلم بالمدينة... التي من شأنها أن تحررنا من كهف الماضي وتجعلنا ننخرط في إبداع المستقبل" (الخطيبي، 1998، صفحة 8)

وفي بحثه عن العلوم الإنسانية وخاصة في مجال التاريخ ينطلق مع عبد الله العروي في أن الباحث العربي يجد نفسه أمام مجال من النظريات الاجتماعية والتاريخية لخدمة أهداف معرفية إيديولوجية، لذلك فهو يعيد بناء بنية المجال المعرفي الذي يشتغل فيه التاريخ، من خلال رؤية منهجية صادرة عن نقد النظريات القائمة حول موضوع بحثه، لذلك فالمؤرخ يجد نفسه أمام ضرورة إعادة التاريخ من أجل تجاوز التصور الخاطيء، ومن أجل الإجابة عن الأسئلة التي يطرحها عليه بإلحاح، كما حاول نقد المفاهيم التي تم الرجوع إليها مثل "العصبية" عند ابن خلدون، التي أنتجها العالم العربي حول نفسه، والتي تتضمن رؤية دائرية للتاريخ أي رؤية العودة الأبدية، فالنقد الاستمولوجي هنا ينتقد الرؤية التي يعتبرها من المنطلقات، إذ لا بد من التحرر من هذه المفاهيم، وذلك بإضفاء النسبية عليها، وعدم إضفاء صفة الإطلاق عليها.

6. خاتمة :

لقد حاول وقيدى البحث في وجهة نظره لتحليل الوقائع غير التي فكر فيها باشلار، فتناول بالدراسة وضع العلوم الإنسانية وشروط نشأتها والبحث في أهم الإشكاليات التي رافقتها كالإيديولوجيا التي أصبحت عائقا معرفيا لها، كما تعرض إلى جدل العوائق التي تعترض علم الاجتماع وكذا بروز المفاهيم الإيديولوجية للإشتراق الذي كان ظاهرة متميزة في العلوم الاجتماعية.

لقد استطاع وقيدى من خلال كتاباته المتنوعة أن يؤرخ للبحث الاستمولوجي في تشخيص أعراضه من خلال العوائق التي اعترضته، كالعائق الإيديولوجي فأراد أن يبحث في نقد المفاهيم من خلال زحزحة العادات وتجاوز التعميم الذي يفقد الهدف الرئيسي للإستمولوجيا .

ما يمكن أن نستخلصه في هذه الورقة البحثية أن مبحث الإستمولوجيا يعد اليوم من أهم الموضوعات الفلسفية الأكثر حيوية، وأشد ارتباطا بالعلم الذي يعكس التبدلات العلمية في البناء المعرفي، وهي المقياس الذي يكشف عن انتماء البناء الفلسفي إلى روح العصر في خانة من خانات التاريخ الثقافي والمعرفي، هذا ما جعله يشكل أرضية خصبة هيأت نفسها للبحث والتنقيب وكذا الحفر لأقلام أخرى إذ " أن حقل الإستمولوجيا كان حقلًا مغريًا لباحثين آخرين، وهو ما خلق نوعًا من التنافس العلمي المحموم بين الأساتذة الباحثين، وخلق جدلاً معرفيًا ومنهجيًا بينهم، وصل إلى حد الخصومة الفكرية، ولكنها خصومة رسخت موقع الإستمولوجيا، بوصفها خلفية علمية، وباراديغمًا معرفيًا، مؤثرًا بشكل كبير، في جل المشاريع الفكرية والعلمية التي تميز بها مجموعة كبيرة من الأساتذة الباحثين المبدعين، من الجيلين، من مختلف الشعب بالكلية .". (همام، 2020)

لكن يبقى وقيدى من كل هذا هو الأقرب نظرا لما ميز العمل لديه، من جدّة وجدية وتأصيل في ماهية الحقل الاستمولوجي ثم الاهتمام بدقائق عقلانية غاستون باشلار، بل لازال يعتبر إلى هذه اللحظة بمثابة مرجعية أولى بخصوص فهم واستيعاب جانب مهم من تراكم مباحث الاستمولوجية على مستوى تاريخ المفاهيم والمدارس والأعلام والمناهج والنتائج. يمكن أن تؤسس بدائل لخطابات سابقة عليه .

هكذا إذن لم يعد يذكر اسم وقيدى سواء في المغرب أو على مستوى امتداد العالم العربي، دون أن يقفز إلى الذهن مباشرة مبحث الإستمولوجيا في مرجعين أساسيين بالنسبة للفكر المعاصر، الإستمولوجية التكوينية لجون بياجي وكذا العقل العلمي الباشلاري، لكن تبقى الإشكالية المركزية في فكر وجهود المرحوم وقيدى هي إشكالية استثمار الدرس الاستمولوجي في جملة من المشاغل منها تحرير العلوم الإنسانية من الخضوع للإيديولوجيا، وكيفية بناء النظرية الفلسفية في قراءة لإخفاقات النهضة العربية و توطين الفكر العلمي، وكذا تحري البعد الديمقراطي وخاصة في الممارسة السياسية، وكذا في فهم إشكالية النمو العقلي والتطور المعرفي عن طريق استثمار منجزين استمولوجيين هامين هما: فلسفة المعرفة عند العالم والفيلسوف باشلار والبنوية التكوينية عند بياجي على النحو التالي: مفهوم القطيعة المعرفية

الذي يستعمل في تجاوز العوائق وتثوير العقل وإثرائه وإخصابه (الخيال العلمي)، ومفهوم تفاعل المعارف الذي استقدمه بياجى (منطق، علم النفس، الإستومولوجيا، التربية...) والتركيز على مفهوم "النمو" العقلي في علاقته بمفهوم تطور المعرفة.

6. قائمة المراجع:

- السيد، شعبان حسن. (1993). *برونشفيك وباشلار دراسة نقدية مقارنة*. بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر.
- اندرية لالاند. (دون سنة). *موسوعة لالاند الفلسفية* (الإصدار المجلد 1). (خليل أحمد، خليل، المترجمون) بيروت: منشورات عويدات.
- بن سالم حميش. (1983). *الفكر الفلسفي المغربي* (المجلد بدون طبعة). بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.
- سليمان، الحقيوي. (11 أوت، 2020). محمد وقيدى.. في عوائق التفكير ورهاناتها. تاريخ الاسترداد 25 فيفري، 2021، من <https://darfikr.com>.
- عابد محمد، الجابري. (2014). *مدخل إلى فلسفة العلوم والعقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي* (المجلد بدون طبعة). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- عبد الكريم الخطيبي. (1998). العلم والتقنية والفلسفة. (الرباط، المحرر) *مجلة مدارات فلسفية* (العدد الأول).
- عبدالسلام، ومحمد، سبيلا بن عبد العالي. (1996). *المعرفة العلمية* (المجلد 2). المغرب: دار توبقال.
- غاستون، باشلار. (1992). *جدلية الزمن* (المجلد 03). (خليل أحمد، المترجمون) بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- محمد، همام. (11 أوت، 2020). *درس الاستمولوجيا بين الجابري وقيدى*. تاريخ الاسترداد 25 فيفري، 2021، من <https://www.alfaisalmag.com>.
- محمد، وقيدى. (2007). *الاستمولوجيا التكوينية عند جان بياجيه* (المجلد بدون طبعة). المغرب: إفريقيا الشرق.
- محمد، وقيدى. (1999). *جرأة الموقف الفلسفي* (المجلد بدون طبعة). بيروت.
- محمد، وقيدى. (1985). *حوار فلسفي* (المجلد بدون طبعة). دار البيضاء، المغرب.
- محمد، وقيدى. (1983). *ماهية الاستمولوجيا؟* (المجلد 1). بيروت: دار الطليعة.
- محمد، وقيدى. (1980). *فلسفة المعرفة عند غاستون باشلار* (المجلد 1). بيروت: دار الطليعة.
- محمد، وقيدى. (2011). *العلوم الإنسانية والادولوجيا* (المجلد 3). بيروت: دار الكتب العلمية.
- محمد سبيلا. (1998). متى يعود زمن الإبداع الفلسفي؟ *مجلة مدارات فلسفية*.
- محمد عزيز الحبابي. (1973). *من المنطق إلى المنفتح* (المجلد 2). (محمد برادة، المترجمون) القاهرة، مصر: مكتبة الأنجلو المصرية.
- مليكة، جابر. (جوان، 2012). *اسهامات الاستمولوجيا في تعليمية علم الاجتماع*. *مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية*.
- وهبة، مراد. (2007). *المعجم الفلسفي* (الإصدار 12). مصر: دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع.